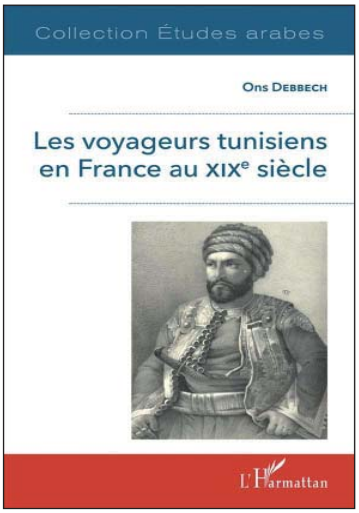

Ons Debbech.- ***Les voyageurs tunisiens en France au XIXe siècle*** **(Paris: L'Harmattan, 2016), 220p.**

على الرغم من أهمية نصوص أدب الرحلة التونسي، وما تتضمنهُ من معلومات وآراء هامة، فإنها حسب رأينا لم تلقى العناية المُستحقة من قبل الباحثين، فمقارنةً بالأعمال المنجزة حول أدب الرحلة المغربي، يبدو الإنتاج حول مثيله التونسي مُتواضعًا جدًا. وربما في إطار محاولة تجاوز هذا النقص، نجد كتاب الباحثة أنس دباش: **الرحالة التونسيون في فرنسا خلال القرن التاسع عشر** (Les voyageurs tunisiens en France au XIXe siècle)، والذي هو في الأصل أطروحة لنيل درجة الدكتوراه ناقشتها الباحثة في جامعة السوربون سنة 2012.

وإذا كان عنوان الكتاب يُحددُ الفترة المدروسة في القرن التاسع عشر، فإن الباحثة تعودُ في إطار تقديمها للسفراء التونسيين إلى فرنسا إلى القرن الثامن عشر، حيثُ تقدمُ قائمة مفصلة عن هؤلاء الرحالة، بدايةً بالحاج مصطفى آغا الذي زار فرنسا في مارس من سنة 1704 بتكليف من الباي إبراهيم الشريف (لا خليل الباي كما ورد في الكتاب)، ثم يوسف آغا الذي كلفهُ الباي حسين بن علي (1705-1735) برئاسة الوفد الذي أرسلهُ إلى الملك الفرنسي سنة 1728، مرورًا بكل من علي آغا ومحمد خوجة (1742)، إبراهيم خوجة (1770)، علي شاوش (1772)، سليمان آغا (1777)، محمد خوجة (1797)، وصولاً إلى مُصطفى أرناؤط (1802).

بعد هذا التقديم المُجمل لطلائع التونسيين ممن وضعوا أقدامهم في بلاد الأنوار لا كتجار أو ربما عبيد بل كسفراء، وصلوا إلى فرنسا في مهمات رسمية، تعود المُؤلفة للحديث عن سفراء ورحالة القرن التاسع عشر، فقد حاولت في العنصر الأول من عملها تقديم لمحة تاريخية عن هذه الرحلات، سواء من خلال الكتُب التي خلفها هؤلاء، أو خصوصًا بالاعتماد على الجرائد والكتابات الفرنسية، حيث تحدثنا مثلاً عن الصدى الكبير لرحلة محمود كاهية حاكم حلق الوادي إلى فرنسا سنة 1825 في بعض الأعمال الفرنسية، مُؤكدةً أن السفراء التونسيين كانوا يحظون دائمًا بحسن الاستقبال والتبجيل من قبل الجهات الرسيمة الفرنسية والأوساط المُثقفة.

وفي نفس الإطار، أي تقديم بعض رحلات القرن التاسع عشر، تتناول الباحثة بالتفصيل رحلة أحمد باي (1837-1855) إلى فرنسا سنة 1846، على اعتبار أنها أول رحلة يقوم بها حاكم تونسي إلى أوروبا، وما لذلك من دلالات ورمزيات، لعل أهمها هو الانفتاح الرسمي التونسي على التطور الحاصل في أوروبا، وما كان لذلك فيما بعد من نتائج على تطور الحركة الإصلاحية في تونس على الصعيد العسكري، السياسي والاقتصادي...

وإذا أمكن التأكيد هنا على أن رحلة أحمد باي إلى فرنسا هي أول رحلة رسمية لحاكم تونسي إلى أوروبا، فإن هروب مولاي الحسن الحفصي (1526-1543) أو لجوءه إلى بلاط شارل الخامس سنة 1534 بعد تنحيته من قبل قوات خير الدين بربروسا عن سلطنة تونس، يمكن اعتبارها أول رحلة لحاكم تونسي إلى أوروبا خلال الفترة الحديثة.

وبالعودة إلى تناول صاحبة الكتاب لرحلة أحمد باي إلى فرنسا، يمكن أن نلاحظ أنهُ فضلا عن اعتمادها على ما دونهُ أحمد بن أبي الضياف في كتابه: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، فقد استندت أيضا إلى عدد من الكتابات الفرنسية التي كشفت بعض الجوانب الخفية عن هذه الرحلة، ومنها "تلطف" الباي مع النساء الفرنسيات، "دهشتهُ" عند مشاهدة فصول إحدى الأوبيرات الكوميدية بدار الأوبرا...

وخصصت المُؤلفة المحور الثاني لحضور رحلات التونسيين إلى فرنسا في جرائد العصر، وخصوصًا جريدة: **برجيس باريس أنيس الجليس**، باعتبارها أول جريدة عربية تصدر في فرنسا (1859) ويشرف عليها اللُبناني رشيد الدحداح والتونسي سليمان الحرايري، مُؤكدةً على الدور المحوري الذي لعبتهُ هذه لجريدة في نشر المعرفة في أوساط النخب المُثقفة والسياسية بالعالم الإسلامي عن العالم الأوروبي وما حققهُ من تطور تقني وثقافي.

وعلى الرغم من أهمية هذا المحور -كما سنبين فيما يلي- فإن عنوانهُ: "رحلات التونسيين في صحافة العصر" (Le voyage des Tunisiens dans la presse de l'époque)، قد لا يتوافق مع ما تضمنهُ من مُعطيات، حيث تم تخصيص حوالي 37 صفحة للحديث عن صحيفة **برجيس باريس** من بين مجموع 40 صفحة التي ضمها هذا العنصر. كما يطرح هذا المحور أيضا إشكالاً آخر يمكن طرحه في هيئة سؤال كالتالي: هل يمكن اعتبار سليمان الحرايري رحالةً وهو المُقيم بفرنسا منذ سنة 1856 وبها توفي ودُفن سنة 1877؟

هذه الملاحظات لا تنفي أهمية ما قدمتهُ المؤلفة من معلومات غزيرة وموثقة جيدًا عن جريدة **برجيس باريس أنيس الجليس** النصف شهرية الصدور، وشخصيتي رشيد الدحداح وسليمان الحرايري، وخصوصًا فيما يتعلق بالدور الذي لعبهُ هذا الأخير، وهو العارف المتحكم في ناصية اللغة الفرنسية والمحيط بتفاصيل التطور الذي حققتهُ فرنسا وحيثياته، حيث حاول التعريف بالتقدم العلمي والتقني الذي حققهُ الغرب، كنشرهِ رسالة بعنوان: "رسالة في حوادث الجوّ،أي أسباب الرياح والحرّ والبرد والضباب والرعد والبرق وقوس قزح ونحو ذلك."

وفيما يتعلق بالمحور الثالث، حاولت الباحثة رصد حضور أدب الرحلة في الجرائد التونسية، بداية بجريدة **الرائد التونسي**، الجريدة الرسمية للدولة، وأول جريدة تصدر في تونس بتاريخ 22 يوليوز 1860، مشيرةً إلى أن أول مقال يمكن تصنيفه في إطار أدب الرحلة، قد صدر تحت عنوان: "الصادق باي في الجزائر" بتاريخ 5 أكتوبر 1860.

أما الجريدة الثانية التي ضمت نصوصًا من أدب الرحلة فهي جريدة **الحاضرة** التي صدر أول أعدادها بتاريخ 2 غشت 1888 وتواصل صدورها إلى سنة 1910. ونجد بين صفحات هذه الجريدة وعلى امتداد 28 عددًا أخبارا عن رحلة علي بن سالم الورداني إلى إسبانيا (1888-1890).

وعلى الرغم من تأكيد الكاتبة على أن رحلة الورداني تمثل أول رحلة عربية معاصرة إلى إسبانيا يطلع عليها القارئ العربي، فإنهُ علينا الإشارة إلى أن الفلسطيني روحي الخالدي والمغربي أحمد الكردودي قد سبقا الورداني إلى زيارة إسبانيا، حيث دون الأول رحلتهُ تحت عنوان: **رحلة الأندلس**، في حين عنون الثاني متنها بـ: **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية**.

وعلاوة على نصوص رحلة الورداني إلى إسبانيا، نشرت جريدة **الحاضرة** مقالات لكل من محمد بلخوجة حول رحلته إلى المعرض العالمي بباريس سنة 1900، والبشير صفر عن رحلته إلى مصر.

وفي نهاية هذا المحور قدمت المؤلفة مجموعة من الاستنتاجات أكدت فيها على طبيعة التحولات التي عرفها الفكر التونسي والإسلامي عمومًا نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فيما يتعلق بالقبول بفكرة سفر المُسلم إلى العالم المسيحي، فلئن وقع تبرير رحلات القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بالمهمات الدبلوماسية، فقد توسع

هذا التبرير إلى الأسباب العلمية أو ما يعرف بعبارة: "الأخذ بأسباب التقدم" مهما كان مصدرها.

وفي هذا الإطار، تكررت مناسبات سفر التونسيين إلى أوروبا وتحديدًا فرنسا، كما تزايد حجم آثارهم التي ظهرت أول مرة في هيئة مقالات صحفية، وإن اتسمت بالاختصار بالنظر إلى طبيعة الكتابة الصحفية، فإنها قدمت جانبًا مهمًا عن نظرة التونسي إلى أوروبا، حيث يظهر وكما تؤكده المؤلفة خصوصًا الاهتمام بالتقدم السياسي والعلمي الذي حققتهُ فرنسا. وتظهر معالم هذا الاهتمام بقوة وبصفة مُفصلة في أولى كتب أدب الرحلة التونسي، أي كتابي محمد السنوسي ومحمد بيرم الخامس.

وفي المحور الرابع، عالجت الكاتبة مسألة اعتبرتها أساسية في أدب الرحلة التونسي الخاص بفرنسا، أي قضية نظرة الرحالة التونسيين إلى المرأة الفرنسية خصوصًا والأوروبية عمومًا، مبرزةً اختلاف مواقفهم بين من نظر بإعجاب إلى مظاهر تطور المرأة الأوروبية وتحررها، فدعا بالتالي إلى العمل على "تحرير" المرأة المسلمة وتعليمها أمثال سليمان الحرايري ومحمد بلخوجة، وبين من أنكر تحرر المرأة الأوروبية ورأى أن دور المرأة المسلمة يقتصر على المنزل وتربية الأبناء كما هو الحال مع أحمد السنوسي وأحمد بن أبي الضياف.

وفي إطار مُتابعة نظرة الرحالة التونسيين تجاه المرأة الأوروبية، تُقدم المؤلفة نموذجا طريفا لنظرة سعيد أبو بكر بخصوص المرأة الإسبانية في جهة الأندلس، ففي كتابهِ المعنون: **دليل الأندلس أو الأندلس كأنك تراه**، يتحدث الكاتب عن الشبه الموجود بين المرأة الأندلسية ومثيلتها المسلمة على مستوى الحشمة، فهي كما يقول تدير وجهها عندما يقوم أحد الفضوليين بالتقاط صورة لها، كما أنها تُفضل التجول في صحن الكنيسة على ارتياد الأماكن العامة.

وانطلاقا من هذه النقطة يمكن الإشارة إلى محدودية جانب المُقارنة في النسخة المنشورة من أطروحة الباحثة أنس دباش، وهنا نقصد المقارنة بين رحلات التونسيين إلى فرنسا وإلى بلدان أوروبية أخرى، أو بين حلات التونسيين ورحلات العرب ممن زاروا فرنسا، حيث لم تقع المقارنة إلا مع رحلة الطهطاوي وتم تغييب كثير من الرحلات المغربية مثل رحلة الجعيدي (1876) أو الجزائرية مثل رحلة سليمان بن صيام (1852).

وهنا يمكن القول أن مقارنة موقف سعيد أبو بكر من المرأة الإسبانية في جهة الأندلس وآراء الورداني عمومًا من خلال متن رحلته إلى إسبانيا مع مواقف وآراء

الرحالة التونسيين إلى فرنسا، يكشف عن منطلقات وأحكام مسبقة أو عن أهداف كل فريق من الرحالة؛ فهدف رحلة الفريق الأول هو البحث عن المجد الأندلسي "الضائع" أو عن بقايا الحضارة الأندلسية، فالرحالة التونسي يبحث دائمًا عن أوجه الشبه بين ما يلاحظهُ والبيئة التي قدِم منها، بما يجعل الإسباني قريبًا جدًا من العربي حتى ولو كان يشبهُ في عادته إلى حد كبير سكان جنوب فرنسا، وما يجعل اللغة الإسبانية المنتمية إلى شجرة اللغات اللاتينية مثلها مثل الفرنسية والإيطالية أقرب إلى اللغة العربية.

أما الفريق الثاني، فكان مُتحررًا تماما من وطأة تاريخ "المجد الضائع،" وظل هدفهُ من الرحلة بعيد عن الرغبة في البحث عن الجذور بل طمح إلى الاكتشاف، دون الاهتمام بالوقوف على وجه الشبه بل على وجوه الاختلاف، وبالتحديد أسباب التقدم الحضاري الذي أحرزتهُ فرنسا.

وفيما يتعلق بالعنصر الخامس والأخير، حاولت المؤلفة رصد حضور "المعرض الكوني،" (L'Exposition Universelle) في مؤلفات الرحالة التونسيين، مثل كتيب سليمان الحرايري: **عرض البديع العام**، ثم كتاب محمد السنوسي: **الاستطلاعات الباريسية**، وكتاب: **سلوك الإبريز في مسالك باريس** لمحمد بلخوجة، ثم كتاب محمد بيرم الخامس، الذي خصص 14 صفحة في كتابه: **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار** لمعرض سنة 1878.

وحاولت الباحثة أيضا تقديم لمحة عن المشاركة التونسية في "المعرض الكوني،" فلئن سمحت للتونسيين وغيرهم من المسلمين من الاطلاع على مظاهر الحضارات الأخرى وخصوصًا التفوق التقني الأوروبي، فقد أكدت النظرة أو الكليشيهات الأوروبية "الرومنسية" كما وقع تخيُّلها عن الشرق، باعتباره مجالاً جغرافيًا تسيطر عليه الصحراء، وتعبق منهُ رائحة التوابل والعطور المنبعثة من أجساد الجواري العاريات والراقصات على أنغام العود والموشحات.

وفي نهاية الكتاب، عرضت المؤلفة جملة من الاستنتاجات كما وقفت عليها من متابعتها للرحالة التونسيين في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، حيث لاحظت ما يلي:

أولاً: تراوحت مواقف هؤلاء بين الإعجاب والإنكار، أي الإعجاب بالتطور العلمي الذي حققتهُ فرنسا، وإنكار الجوانب الأخلاقية المتعلقة خصوصًا بتحرر المرأة وربما كذلك النزعة الاستعمارية الفرنسية.

ثانيًا: التأكيد على طغيان الإحساس بالضعف أو الهزيمة على خطاب الرحالة التونسيين.

ثالثًا: الإشارة إلى تغليف مُعظم الرحالة لدعواتهم الإصلاحية والاقتداء بأوروبا بغلاف ديني أو مبررات دينية، من باب دعوة الإسلام إلى الاجتهاد وإلى الأخذ بأسباب التطور مهما كان مصدرها.

هذه الدعوات وعلى الرغم من "اجتهاد" الرحالة التونسيين في إيجاد حجج دينية لها، فقد لقيت رفضًا قاطعًا عند القوى المُحافظة التي ردت عليها بقوة واعتبرت أن التطور والتقدم لا يكون بالاقتداء بالغرب، بل بمحاكاة "السلف الصالح،" ولعل من بين أشهر الردود المحافظة ذات الدلالة في هذا الصدد، التي يمكن الإحالة عليها هي كتاب مُحمد القروي بعنوان: **حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية**، والذي انتقد فيه بشدة دعوات الإصلاح التي أطلقها محمد السنوسي في كتابه: **الاستطلاعات الباريسية**.

وفضلا عن المقدمة، والمحاور الخمس، ثم الخاتمة وقائمة بالمصادر والملاحق، ضم الكتاب الذي نحن بصدد تقديمهِ قسمًا للملاحق، وضعت فيه المؤلفة بيوغرافيا هامة وموجزة لاثنتي عشرة رحالة تونسي، هم على التوالي: محمد بن عمر التونسي (1789-1857)، وأحمد بن أبي الضياف (1802- 1874)، وخير الدين التونسي (1822 - 1889)، ومحمد بن عثمان الحشايشي (1855- 1912)، ومحمد السنوسي (1851-1900)، ومحمد بيرم الخامس (1840-1889)، وعلي بن سالم الورداني (1861-1914)، ومحمد بلخوجة (1869- 1943)، والبشير صفر (1865-1917)، ومحمد الخضر حسين (1873- 1958)، ومحمد المقداد الورتاني (1875-1950)، وأخيرا سعيد أبو بكر (1899-1948).

وإجمالاً يمكن التأكيد مرة أخرى على أهمية كتاب: **الرحالة التونسيون في فرنسا خلال القرن التاسع عشر**، لمؤلفته أنس دباش، باعتبارهِ وكما أشرنا في بداية هذه المراجعة إسهام جيد في سد النقص الهام الحاصل في حقل الدراسات المُتعلقة بأدب الرحلة التونسي، كما تضمن بين دفتيه كثيرا من المعطيات الأساسية التي تؤكد حسن إطلاع الباحثة وإلمامها الواضح بثنايا المصادر والوثائق الأرشيفية التونسية والفرنسية على حد سواء.

حسام الدين شاشية
جامعة صفاقس، تونس